العدد (1913) السنة الثامنة - الخميس (23) أيلول 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

تمثلات النهضة

معوقات النهضة في العراق، ونقد مشروعها

إن الشرط الأبستمولوجي لأي معرفة هو في تأشير ما يعيق تفتحها ونموها، لأن القصور الذاتي للمعرفة لا ينفصل عمّا يحدّها ويكبحها موضوعياً. وحين نتكلم عن (معرفة) إنتاجاً وتداولاً وتفاعلاً وفعلاً في الواقع تخص نهضتنا نجد سلسلة من عمليات إجهاض منظّمة مورست ضدها وأعاقت تراكمها من قبل قوى وسلطات اجتماعية وسياسية، داخلية وخارجية، مباشرة وغير مباشرة.

(الجزء الرابع)

سعد محمد رحيم

إن إعاقة نمو المعارف والحجر على حرية إنتاجها وتداولها، لاسيما في مرحلة التحديات التي يواجهها المجتمع تتصل بالمحددات المرسومة للعقل في أن لا ينتهك حرمة منطقة واسعة تبقى مسكوتاً عنها، ويمنع دخولها والتساؤل حولها. ففي مقابل السؤال الأبستمولوجي الحاسم، في إطار نظامنا المعرفي العربي، (حيث الثقافة في العراق، بحكم اللغة والسياق التاريخي أولاً، جزء من ذلك النظام على الرغم من إمكانية الكلام عن خصوصية عراقية أيضاً) والذي مؤداه؛ ما الذي يعيق العقل العربي من إبداع فكر نهضة حقيقي وفاعل، أي فكر مغيّر يحوّل المناخ الثقافي العربي، ومن ثم الواقع العربي؟ يظل السؤال السياسي المناظر هو؛ ما دور السلطات القائمة (السياسية منها والاجتماعية) في عرقلة مشروع النهضة بأبعاده الفكرية والسياسية والوجودية؟.

يمكن تأشير مرحلتين في عمر فكر النهضة العربية الحديثة. تبدأ المرحلة الأولى مع رفاعة رافع الطهطاوي وتنتهي مع محاكمتي علي عبد الرازق وطه حسين، والثانية تبدأ مع طه حسين وتنتهي بالهزيمة العربية المدوية في حزيران ١٩٦٧.

لم تكن الهزيمة تجسيداً تاريخياً لقصور فكر النهضة وفكر طه حسين، بل هزيمة لما أعاقهما وأجهضهما. لكن طه حسين، مع تنويريين عرب آخرين، وقبل أن يمضوا ألقوا بذور فكرهم العلمي ومنهجهم التي أثمرت بهذا القدر أو ذاك، وإنْ بعسر، في رحم الفكر النقدي العربي الحديث، لاحقاً.

كان أول سؤال خطر لي بعد فراغي من قراءة كتاب فاطمة المحسن (تمثلات النهضة في ثقافة العراق الحديث) هو؛ هل كانت فكرة النهضة والتنوير والتحديث والتمدن (عراقياً) واضحة في أذهان روادها ودعاتها الأوائل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين؟ أو بعبارة أخرى؛ هل أن تلك الفكرة تجسّدت في مشروع مجتمعي، محدد الملامح والأبعاد في إطار دولة، أيضاً، محددة الأبعاد والملامح، في خطاب نهضوي متكامل، أم بقيت في شكل شذرات أفكار، أو أفكار خام وتصورات لم تنضج تماماً، وقبسات صور مأمولة مُرمنسة؟

أما السؤال الثاني فكان؛ إلى أي مدى أثر خطاب النهضة ذاك، في فكر وثقافة العراق دولةً ومؤسسات وتيارات سياسية وثقافية وطبقات اجتماعية؟ ومن ثم؛ هل أن ما آل إليه مشروع النهضة من تلكؤ ومواطن قصور وأخطاء، وبعد ذلك، هذه الخريطة المتبسة والمشوشة والمعقدة التي انتهى إليها وضعنا السياسي والاجتماعي الآن، هو نتيجة لقصور في مشروع النهضة ذاك؟ أم أن السبب يكمن في جملة الظروف الموضوعية المتعلقة بواقع إقليمي ودولي خاص خلال عقود القرن العشرين والتي أعاقت المشروع من المضي في الطريق المناسب والصحيح والمثمر؟ وعوداً إلى مضامين المشروع ذاته؛ هل بدأ الإخفاق مذ لم يستطع الدعاة والرواد والمثقفون الذين تبنوا المشروع وروّجوا له الإجابة الشافية على سؤال الهوية؟ أم ماذا؟.

هل ولد المشروع معاقاً متردداً؟ هل لأنه بقي مشروع نخب سياسية وثقافية ولم يتحول إلى مشروع يؤمن به المجتمع ويأخذه على عاتقه؟ هل لأن من تبنى المشروع هم من العسكر المسيّسين، ضيقي الأفق، من ذوي النزعة الإنقلابية، حيث يجري حكم المجتمع بعقلية الثكنة؟ هل الخلل في المؤسسات التي التزمت بتحقيق المشروع سواء كانت مؤسسات الدولة أو الأحزاب والتيارات السياسية ومنظمات المجتمع المدني؟ هل لأن المؤسسات التقليدية، الأهلية (لاسيما العشيرة) والمؤسسة الدينية (الطائفية بالضرورة) ظلّت أقوى من المؤسسات الحديثة؟ أعتقد أن الإجابة على هذه الأسئلة من شأنها إكمال الجهد الخلّاق للكاتبة في تقصّيها عن فكر النهضة في النتاج الثقافي والأدبيات السياسية في العراق الحديث. لذا أرى أن مهمة النخبة المثقفة العراقية، اليوم، ليست في إعادة قراءة مشروع النهضة كما تمثل في أفكار رواده، وفي التحولات المدينية لعراق ما قبل تأسيس الدولة الحديثة (١٩٢١) بعقود قليلة، وما بعد تأسيسها بعقود قليلة، وحسب. بل في إعادة صياغة مشروع النهضة ذاك من منطلق إعادة القراءة والتحليل والتقويم، وأيضاً في ضوء معطيات العصر ومناهج الفكر الحديثة.

إن أي نزوع للنهضة عند مجتمع ما لابد من أن يتجلى أولاً في شكل أفكار وتصورات ودعوة؛ أي في شكل ثقافة، ثقافة تتبلور في عقول النخب وتسري في ضمائرهم وتنتج أدباً وفناً ورؤية اجتماعية وفكراً سياسياً وبيئة علمية سليمة، الخ.. فتفيض على شرائح المجتمع، وتؤثر في معتقداتها وآمالها نفسها هي المعنية بمسألة النهضة والبناء. غير أن ما حصل عراقياً هو أن هذه الثقافة النهضوية بقيت حبيسة طبقة اجتماعية محددة هي الطبقة الوسطى المتعلمة من أبناء المدن الكبيرة، وهذه لم تكن تشكل سوى نسبة صغيرة بالقياس إلى نسبة الفلاحين المعدمين، والطبقات الاجتماعية الفقيرة والمهمّشة في المدن الكبيرة، والبلدات الصغيرة.

لم يكن شكل النظام السياسي المرتقب واضحاً في أذهان النخب الصاعدة. ولم يكن المثال الملهم واحداً في أذهان الجميع. وهذا بعض من التناقضات التي حفل بها فكر النهضة. كان شكل دولة النهضة حلماً طوباوياً مبهماً عند الجيل الأول أكثر من كونه مشروعاً واقعياً قابلاً للتطبيق والحياة. واختلف الأمر نسبياً عند الجيل التالي، لاسيما مع تأسيس الدولة نفسها.

إن أي مشروع نهضوي بحاجة إلى تشكيلة اقتصادية اجتماعية لتبنيه والقيام بمسؤولية تحقيقه، أو القيام بالدور القيادي في تحقيقه.. تشكيلة أو طبقة ترى مصلحتها العليا في تحقيق هذا المشروع. هذه التشكيلة في عراق مرحلة النهضة كانت هشة بحكم ارتباطها بالدولة الناشئة الرخوة في بنيتها.. كان أفرادها، إذا ما تحدثنا عن الطبقة الوسطى، في الأغلب الأعم، إما موظفين لدى الدولة، أو كسبة وتجاراً ومقاولين وصناعيين صغاراً يزدهر وضعهم أو ينتكس تبعاً لمراحل قوة الدولة أو ضعفها.

وعموماً أعتقد أن أربعة معوّقات رئيسة حالت دون أن تسير الدولة العراقية في طريق نهضة حقيقية هي؛

١. سيطرة العسكر على مفاصلها الأساسية منذ نشأتها، وقبل أن يؤول الأمر، فيما بعد، إلى طبقة العسكريتاريا المتحدرة غالباً من أصول ريفية. فالطابع العسكري للنخب السياسية العراقية وجاذبية الحياة العسكرية بعدّها مركز القوة (POWER) في المجتمع عزز ضعف، وأحياناً غياب التقاليد والمؤسسات الديمقراطية والمدنية.

٢. صراعات الأحزاب غير المؤمنة بالديمقراطية للاستحواذ على السلطة والتي اتخذت، في معظم الأحايين، طابعاً عنفياً دموياً.

٣. الطابع الريعي للاقتصاد، والافتقار إلى برامج تنموية مركّبة وفعالة. والذي أدى إلى عدم نشوء صناعة وطنية مزدهرة تتمخض عنها طبقة عمالية واسعة. في مقابل تغيرات ديموغرافية تمثلت بتوسع المدن بتأثير الهجرات غير المنظمة من الريف إلى المدينة. هذه الهجرات التي ستؤثر، شيئاً فشيئاً، على الطابع المديني للعاصمة ومراكز المدن الكبيرة في البلاد ويقود، من جهة ثانية، إلى تدهور نظام الإنتاج الزراعي.

٤. بقاء العراق جزءاً من أهداف القوى الدولية المتقاتلة على المستعمرات، أو الحصول على مراكز النفوذ. وأرى إن تأسيس إسرائيل كدولة على أرض فلسطين، وما استتبع ذلك من ظهور قوي للقضية الفلسطينية ودوام الصراع العربي - الإسرائيلي كان سبباً مباشراً في تلكؤ مسيرة النهضة والتنوير والديمقراطية، ليس في العراق فقط وإنما في الدول العربية الأخرى كذلك.

واجهت فكر النهضة أزمتان، أو أزمة لها وجهان.. وجه من الفكر أبان عن عدم قدرته على تمثل جزء من الواقع العراقي القائم؛ جزء عصي وزلق فشل الفكر بأدواته التقليدية في الإمساك به. ووجه متقدم على الواقع القائم.. واقع لا يمتلك شروط تحقيق ما في ذلك الفكر النهضوي من أبعاد وآفاق.

خفتت فاعلية مشروع النهضة مثلما طُرح في المجال الثقافي والاجتماعي والسياسي، وأخذت منحى مغايراً في نقطة زمنية فاصلة من مسار تاريخ العراق السياسي الحديث تتمثل بما حصل بعد ١٤تموز ١٩٥٨ لا بسبب الثورة، وأزماتها وما تبعتها من انقلابات فقط، بل بسبب تسيد خطاب آخر غير خطاب النهضة التقليدي العلماني المستبطن في خطاب الدولة ما قبل الثورة. وأقصد خطاب الأحزاب الراديكالية التي هيمنت على الشارع السياسي وعلى المؤسسة السياسية في الوقت نفسه؛ أفكار اليساريين الشيوعيين إلى حد ما، وأفكار القوميين إلى حد بعيد، ناهيك عن النزعة العسكرية لتوجه أغلب النخب الحاكمة.

كان للضباط العراقيين الذين أنهوا تعليمهم العسكري في الأستانة، وتأثروا بقيم العسكرية العثمانية، وبما أخذوه من مدربيهم الألمان، الدور الأبرز في بناء الدولة العراقية، كونهم حصلوا على تعليم أفضل من غيرهم، وأصابوا ثقافة سياسية أهلتهم، إلى جانب ما يمثلون من سلطة عسكرية، ليكونوا الرجال القياديين في الدولة الجديدة. وكان معظم هؤلاء ممن شاركوا في الثورة العربية بقيادة الشريف حسين في الجزيرة العربية ضد السلطة العثمانية.. تقول الباحثة؛ "لم يكن الضباط الذين مالوا إلى النزعة العروبية، خلال مراحل الثورة العربية في الحجاز وسوريا، من منتجي الأفكار أو المساهمين في النقاش الفكري، ولكنهم يتفوقون على المثقفين الآخرين، بمستوى تعليمهم العالي، وبمعرفتهم اللغات الغربية، وخاصة الفرنسية، فكانوا مساهمين فاعلين في خلق ثقافة عصرية في العراق، سواء على مستوى بناء المؤسسات، أو من خلال تطلعهم إلى تكوين مجتمع مديني يتجاوز البنى العشائرية وسيطرة رجال الدين" ص١٤٠.

وإذ لم يترك أولئك الضباط أدبيات فكرية عروبية لكن "نشاطهم كان يتجسد عبر تمثلهم إيديولوجيا الكيان الجديد، أي الإطار الاعتقادي لجهاز الدولة" ص١٤١. وتوضح الباحثة كيفية طغيان الصبغة النازية على أفكار كثر من القائمين على إدارة الدولة الفتية، لاسيما الضباط منهم، لأن الفكر العروبي "الذي تبنوه كان على تعارض مع البريطانيين باعتبارهم المحتلين والممهدين للمشروع الصهيوني في المنطقة العربية" ص١٤٢.

لم تأخذ حركة الإصلاح الديني في العراق بانشباكها مع حركة النهضة المدنية مداها المطلوب. وكانت هذه واحدة من أسباب تباطؤ حركة النهضة ذاتها، وفشلها النسبي. وحتى رجال الدين الذين روّجوا لأفكار التحديث وقيمها، أما فعلوا ذلك بحذر شديد، وفي إطار ضيّق، أو انسلخوا، بهذا القدر أو ذاك، عن المؤسسة الدينية وتعاليمها متحولين إلى رجال سياسة وثقافة. فسطوة طقوس الدين الشعبي، المدعومة من المؤسسات التقليدية للإبقاء على استمرار نفوذ القائمين على تلكم المؤسسات، ومن ثم إدامة سيطرتهم على العامة حالت دون ازدهار اتجاهات الإصلاح داخل المؤسسات الدينية. كذلك لم تطرأ تغيرات ملموسة على جوهر الخطاب الديني التقليدي السائد. وتضيف فاطمة المحسن عوامل أخرى ساهمت في ذلك، تقول؛ "وفي الظن أن الطابع البطريركي للثقافة الإسلامية قد أسهم في اكتسابها نزعة محافظة، بسبب مراتبية التوارث، حيث يصبح السير على نهج الأسلاف، من العائلة التي ينتمي إليها المشتغل بأمر الفقه والفتوى والتاريخ والأدب، واجباً يتعين عليه الأخذ به كي يحفظ لعائلته تلك المكانة. كما أن مهنة التدريس، والاعتماد مادياً على الهبات والمساعدات من العامة، جعل الثقافة مرتهنة إلى واقع يأبى خروجها عن السائد أو تطوير أفكارها" ص١١٠. وكانت على الدولة، على الرغم من استقلال المؤسسة الدينية عنها، أن تخطب ود القائمين على تلك المؤسسة. وأن تحسب حساب اتجاهاتها وسياساتها ومصالحها. إذ لم تستطع المؤسسة الدينية أن تكون أداة فعالة لدعم قوة الدولة. والعلة ليست في طبيعة المؤسسة فقط، وإنما في الطبيعة الإشكالية القاصرة للدولة ذاتها.

فضلاً عن ذلك طبع الشعر فكر النهضة (عراقياً) بطابعه ومزاجه، وحمل لواء هذا الفكر، في أول الأمر، الشعراء. ففي مجتمع تغلب عليه الفقر والأمية والجهل والثقافة الشفوية ذات المسحة القدرية، ويعيش شبه ركود حضاري، أو يسير بإيقاع بطيء في المجالات الحياتية المختلفة، ويقوم على قيم وقناعات تقليدية يصبح الشعر التقليدي (العمودي) أداة ترويج مناسبة للأفكار والمفاهيم. وحتى صراعات الأفكار تحتدم في ميدان الشعر. وهكذا ظهرت أولى تباشير النهضة في أفق الشعر، ومكث فكرها في زمن الشعر، وحتى "الكثير من كتّاب النثر اللامعين، مكثوا متوارين خلف بريق الزهاوي والرصافي اللذين تطارحا الأفكار على نحو فيه الكثير من الجاذبية والاندفاع. ولا ريب أن عالم التلقي في تلك الفترة يحتاج إلى الصوت المنبري وتوهج الشعر وحماسه، لأنه يمكث في زمن تغلب عليه تقاليد الثقافة الشفاهية التي بقيت أقرب إلى ذائقة المتعلمين الجدد" ص١٦٦. هذا الشعر الذي سيجعل من الأفكار الجديدة محتوى له وغرضاً أساسياً سيبدو "وكأنه يرجّح البعد العقلي على الخيال والإلهام" ص١٧٢. فيتنازل عن بعض غير قليل من طراوته ورقته وروحه الحسية والعاطفية لصالح البوح عن الحقائق العلمية التي باتت النخب تتعرف عليها، أو عن التصورات السياسية والقيم الاجتماعية المستحدثة التي لابد من أن تواجه الأفكار والتصورات والقيم الموروثة الراسخة.

تقارن المحسن بين طبيعة الشخصية الشعبية العراقية والمصرية وانعكاسها على كيفية القول الشعري ونسيجه وسماته في كل من البلدين (العراق ومصر) "فالصرامة العسكرية في شعر البارودي، والطراوة في شعر شوقي، هما حدّا الثبات المجتمعي وسلطة المؤسسات وتنظيم الحياة ووسائل الترف التي عرفها المصريون منذ عهد محمد علي، في حين بقي العراق، في تفكك بناه وضعف مظاهر التمدين فيه، أقرب إلى حاضنة قلقة في تعاملها مع الأفكار والموجات الأدبية" ص١٨١. اكتسب الشعر والشعراء مكانة أرقى في سلّم الثقافة والمجتمع بحكم ما اتسم به من اتجاه وعظي وتوجيهي وتعليمي "فوظيفة الشاعر تحولت من التابع والمتكسب إلى الطليعي الذي يمثل دور المثقف الفاعل المؤثر جماهيرياً، مثلما تأثر خطاب النهضة ذاته بمزاج الشعر من حيث قوة الاندفاع التي تنطوي عليها صبوات الشعراء أنفسهم" ص١٨٣. ولعل في هذا تكمن إحدى علل عدم إنضاج فكر نظري نهضوي عقلاني ومنطقي متسق له فاعليته في الواقع. فالشعر ببنيته الشكلية الخاصة، وآفاق بلاغته، لن يستوعب ويتمثّل أطروحة نظرية تفصيلية واسعة وعميقة ومتماسكة، ولابد من أن تغلب على بعض جوانبه العاطفة والرؤى الخيالية المبالغ فيها، فيما سيتأثر نطاق وطبيعة تلك الأطروحة بالأمزجة المتقلبة للشعراء.. تقول المحسن؛ " إن الشاعر العراقي كان يحتفظ بمزاج متقلب لا يستوي فيه في موقف أو يركن إلى مبدأ سياسي، فهو سياسي بمقدار ما يتوق إلى نظام اجتماعي جديد، وتتحدد علاقته مع السلطة وفق مزاج الشاعر ومصالحه، ولم يكن هذا المزاج أو تلك المصالح على ثبات وديمومة" ص١٨٩.

أخيراً، لابد من أن يكون لأي مشروع نهضوي بعده الاقتصادي، ولاشك في أن هذا البعد هو الأهم، وبتخلخله تتخلخل بنية المشروع برمتها. والغريب أن النظر الاقتصادي غاب إلى حد بعيد عن رؤى كثر من دعاة النهضة. ونجد أن الكاتبة هي الأخرى لم تتناول الوجه الاقتصادي للنهضة في العراق الحديث، لا لأنها كانت معنية فقط بوجهها الثقافي، فالفكر الاقتصادي جزء من المنظومة الثقافية كما نعرف، ولكن باعتقادي لافتقار أدبيات النهضة غالباً للرؤى والتنظيرات الاقتصادية.

إذا كانت البيئة المعرّضة للكوارث تحول دون تواتر وتراكم المنجزات المدنية والحضارية فإن ثمة سبباً آخر لهذا وهو الفقر والعَوَز وركود وتخلف الحالة الاقتصادية. فالنهضة الأوربية لم يكن لها أن ترى النور لولا الازدهار الاقتصادي والتجاري وصعود طبقة بورجوازية تجارية رعت الثقافة والعلم والفنون. وفي العراق مثلت البرجوازية المدينية الصاعدة (الطبقة الوسطى) الوسط الاجتماعي لتفاعلات فكر النهضة. وهذه الطبقة، الواهنة أصلاً، لم تكن تشكل سوى نسبة قليلة قياساً إلى جيش الفلاحين المعدمين المنتشرين في ريف البلاد الذي كان يشكل أكثر من ٧٠٪ من السكان. إن عَوَق النهضة ومحدودية أفقها وعللها الكثيرة، قاد، فيما بعد، إلى حداثة مختلة وشوهاء، ليس في العراق وحسب، وإنما في معظم ما سمّي بدول العالم الثالث المستقلة لتوّها.

نحن والحوار مع الآخر

إيمان محسن جاسم

يجب علينا أن نسأل أنفسنا لماذا نحن نعيش أزمة بل أزمات عديدة في بلداننا ؟ ولماذا حين نسافر خارجها نشعر بأننا نعيش في عالم آخر ؟ عالم تتوفر فيه كل مقومات الحياة فلا تنافر ولا احتراب ولا هموم كتلك التي نعيشها؟

دول كثيرة قائمة على التنوع والتعددية القومية والعرقية والدينية ، الهند بلد كل الديانات واللغات لكنه يعيش بأمان وتعايش ويعتبر الديمقراطية الأعرق في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، دستور هذا البلد هو الأكبر من حيث عدد مواده التي استغرقت كتابتها أربعة أعوام من دون أن يستعجل الهنود من أمرهم شيئاً.

سويسرا بلد القوميات المتعددة وبلجيكا هي الأخرى تعيش هذا التنوع ، وأمريكا التي تكونت من مهاجرين من دول عدة هي الأخرى تتعايش مكوناتها بأمن وسلام وطمأنينة .

نحن نختلف كثيرا وتبرز لدينا نوازع تلغي هويتنا الكبرى سواء أكانت الدينية أم الوطنية،عالمنا العربي يتصارع في داخله ولا يتحاور ، يرفض لغة الحوار لأنها ستقضي على تلك النوازع التي ستجرد البعض من مناصبهم التي اختلقوها بفعل هذا التصارع ، في لبنان تبرز الطائفية بشكل رسمي ودستوري بحيث حولت هذا البلد الجميل إلى كانتونات مقفلة لهذا وأخرى لذاك وثالثة لهؤلاء ، في مصر يتعرض الأقباط لشيء من العمليات المتطرفة على غرار ما تعرض له أتباع الديانة المسيحية في العراق .

هذا الغلو والتطرف هو الأزمة الأكبر التي علينا معالجتها واقتلاع أفكارها من جذورها حتى لا نجدها تنمو بعد عقد أو أكثر و لا تخلق لنا أزمات أخرى.

هذا التطرف الأعمى هو الذي جعل ثلة من المهووسين بالعداء للحضارة يقودون طائرات تهاجم أمريكا من دون أن يفكروا لحظة واحدة بأنهم سيقتلون أناساً أبرياء لا ذنب لهم ، سيقتلون نفساً حرم الله قتلها.

من أين جاء التطرف والغلو إلينا ؟ هل نحن ساهمنا في ولادته، ورعايته، ودعمه ؟وما هي العوامل التي ساعدت على بروزه كتيار أكتسح الساحة العالمية وبرز كممثل للإسلام والمسلمين ؟

هنالك أجوبة كثيرة لهذه الأسئلة لكن أهمها بالتأكيد إننا كعالم عربي وإسلامي انغلقنا على أنفسنا عقوداً طويلة ، بعد أن توهمنا إننا تحررنا من الدول الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من موجات الثورات التي أطاحت بمن أطاحت وجاءت بمن جاءت .

أنظمتنا السياسية قائمة على الثورية والقرارات الفردية ومصادرة الرأي الآخر وقمعه بالقوة ، هذه هي طبيعة الأنظمة السياسية في بلداننا كافة ، وتمكنت هذه الأنظمة بحكم تراكم سنوات حكمها الطويلة من أن تبني مجتمعاً وفق فلسفتها ورؤيتها بآليات غير مسبوقة ولهذا نجد بأننا الأمة الوحيدة في العالم التي أعادت كتابة تأريخها عدة مرات نزولاً عند نزوات السلطات الحاكمة ، وكتابة التاريخ في المفهوم العربي يعني إعادة النظر بكل ما يتعارض مع السلطة القائمة .

وضخت مواد التاريخ لأجيال عديدة تشبعت بمفهوم المعارك وقادتها وخرائطها وأساطيلها وجيوشها حتى نشأت لدينا أجيال متتالية لا تعرف من التاريخ العربي والإسلامي الا بجدود ساحات المعارك التاريخية وقادتها ، وتناسى التاريخ علماءً أفذاذاً كان لهم دور كبير في الطب والرياضيات والفلك وغيرها من العلوم والمعارف .

وبالتزامن مع هذا عمدت تلك النظم السياسية للاستحواذ على الدين بما يؤمن لها تنشئة المجتمع وفق إرادتها أو على أقل تقدير إبعاد المؤسسة الدينية عن أداء واجباتها في المجتمع ، هذا الإبعاد مهد الطريق كثيراً لبروز تيارات دينية جديدة استمدت مفاهيمها وفلسفتها من مفاهيم وفلسفة السلطة، وبالتالي لم نجد أي تعارض وتقاطع بين رجال الدين الرسميين إن صح التعبير وبين فكر ونهج السلطة السياسية .

وبالتالي وجدنا ثمة تيارات دينية متطرفة ترفض قبول الآخر والحوار مع الآخر متبعة ذات النهج الذي تتبعه الدولة العربية في تصديها لمن لا يتوافقون مع آرائها وعملية التصدي هذه تكون عبر العنف وليس المناظرات والحوارات كما هو متعارف عليه .

لذا وجدنا عالمنا العربي شبه خال من المعارضة إلا من كانت تدور في فلك السلطة لتزين صورته أمام الآخرين وتحفظ له ديمومته .

وبالمقابل وجدنا في دول الغرب العكس تماما هنالك معارضة شرعية دستورية ، واحترام للرأي والرأي الآخر ، ورجال الدين يؤدون واجباتهم الاجتماعية بالشكل السليم والصحيح بما ينظم حياة المجتمع بعيداً عن أية تشوهات قد تصيبه. غياب رجل الدين المعتدل عن المجتمع العربي والإسلامي كانت عواقبه الاجتماعية كبيرة جداً من خلال بروز رجال دين متطرفين صنعتهم منظومة الدولة وهيأت لهم سبل البروز ليكونوا وعاظاً لها في أزماتها المتكررة بين الحين والآخر .

لذا نجد أن بناء المجتمع العربي تم من خلال منظومة فكرية أحادية غايتها الأساسية بناء مجتمع متطرف ينهار بانهيار هيكل الدولة ويتفتت إلى أجزاء متناحرة متى ما تفتت الدولة ويتحول هذا المجتمع إلى عبء على نفسه أولاً وأخيراً، لأن عملية البناء هذه كانت بعيدة عن أفكار الاعتدال والتسامح والوسطية بل قائمة على الغلو والتطرف في أقصى درجاته .

لذا عندما حدثت عمليات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية اكتشف الأمريكان بأن رد فعل الحكومات العربية والإسلامية الرسمي هو التنديد بها واعتبارها إرهاباً لا مبرر له ، لكن رد الفعل الشعبي كان عكس ذلك تماما حيث إن الشعوب العربية والإسلامية كانت تعيش تحت ضغط الشعارات المركزية التي تسمعها وتحفظها عن ظهر قلب ، هذه الشعارات التي غايتها الأساسية تعبئة الجماهير ضد " الامبريالية ،وغيرها من المصطلحات التي تملأ لافتاتنا في كل مناسبة انتصاراً كان أم نكبة !

هذه التعبئة التي استمرت عشرات السنين لا يمكن أن تمحو آثارها وتزيلها بمحاضرة أو محاضرتين وعبر داعية هنا أو هنالك أو مقال يكتب في هذه الصحيفة أو تلك ولا من خلال قناة فضائية واحدة بل يحتاج إلى عملية شاملة لتغيير المفاهيم وبناء مجتمع على أسس المواطنة وثوابتها بالدرجة الأولى ومعايير الإنسانية القائمة على الاعتدال والوسطية وتقبل الآخر .

نحن كشعوب إسلامية بحاجة ماسة جداً لقيم الاعتدال هذه لأنها السبيل الوحيد لكي نتعايش مع الآخر ونكون عنصراً إيجابياً في إدامة الحياة في هذا الكوكب.